دَلَالَةُ الْقَلْبِ وَالْفُؤَادِ فِي الْقُرآنِ الكَرِيمِ

الشيخ الدكتور منصور مندور

الازهر الشريف - جمهورية مصر العربية

فحوى البحث

دراسة وصفية تحصر دلالة ورود كلمتي (القلب) و (الفؤاد) في القرآن الكريم والعلاقة بينهما والتي تحتاج (على حد رأي السيد الباحث) الى دراسة عميقة وتأمل دقيق من خلال منهج القرآن المجيد في التعامل مع طبيعة الانسان وانه خليفة الله في أرضه.

وقد توصل الباحث الى ان (القلب) في القرآن، يشير الى العقل. بينما يشير معنى (الفؤاد) الى مركز المشاعر والاحاسيس وقد ضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم الذي جعله المصدر الوحيد لانجاز البحث، مبتعداً بذلك عن مساجلات العلماء والمفسرين حول هذا الموضوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.. وبعد.

تمهيد

العلاقة بين القلب والفؤاد -لا شك-في أنها تحتاج إلى دراسة عميقة وتأمل دقيق من خلال منهج القرآن المجيد في التعامل مع طبيعة الإنسان وأنه خليفة الله في أرضه.

ومن المعروف أنه لا نجاة للإنسان في الدنيا والآخرة إلا إذا سَلِمَ قلبُه وحسن فؤاده؛ لأن القلب عليه مدار الأمور؛ فإذا صلح قلبه صلح جسده كله، وإذا فسد، فسد جسده كله؛ ولأن الفوائد تنبثق منه مشاعر الإنسان وأحاسيسه؛ فكان لابد له من ضبط وفق الرؤية الإسلامية؛ وقد جاءت آية واحدة في القرآن المجيد جمعت بين الفؤاد والقلب وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة القصص: ١٠].

وإذا كان القلب في القرآن الكريم يشير إلى العقل، فإن الفؤاد يشير إلى مركز المشاعر والأحاسيس فينا؛ فأُمّ موسى أنفطر فؤادها على وليدها الصغير، وكان الربط وظيفة القلب بمعنى العقل الذي ضبط المشاعر والأفعال لأنها كانت ستذهب إليه، ونحن نعلم دقة القرآن الكريم في استعمال الألفاظ و الدلالات اللغوية.

والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حيّةً (فارغاً) لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصريف حتى كادت لتبدي به وتذيع أمرها في الناس، بعدما ألقت به في اليمّ لولا أن الله تعالى ربطَ على قلبها وثبّتها لتكون من المؤمنين بوعد الله، الصابرين على ابتلائه، السائرين على هداه.

ومن ثم تأتي هذه (الدراسة المتأنية) من خلال القرآن الكريم إلى (مجلة المصباح) حرصاً على إيضاح وبيان حقيقة القلب والفؤاد في القرآن المجيد.

فقلب الإنسان هو محل نظر الخالق تبارك وتعالى وقبول العمل ورده، والإثابة عليه بالنظر إلى نية العبد؛ فإما

أن يكون نقياً سليمًا، وإما يكون منحرفاً سقيمًا؛ سليمًا من الشرك أو سقيمًا بالشرك، سليمًا من الكفر أو سقيمًا بالكفر، سليمًا من النفاق والريـــاء أو سقيمًا بالرياء والنفاق؛ يقول المولى عز وجل: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء: ٨٩].

وقد فاز ونجا وربح صاحب القلب السليم، وزلّ وضـلّ وغَـوَى صاحبُ القلب السقيم الذي ران على قلبه بسبب ما كان يكتسبه من آثام وذنـوب؛ فصار لكثرة ذنوبه عن ربه محجوب؛ قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [سـورة المطففين: ١٤ -١٥]. أي غطـــى على قلوبهم ما كانـــوا يكسبونه من الإثم والمعصية. والقلب الـذي يمـــرد على المعصية ينطمس ويظلم؛ ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النـــور عنه ويحجبه عن النور، ويفقده الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت... عـــن أبي هريرة، عن النبيﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت». وقال الترمذي حسن صحيح. ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء. فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الـران الـذي قـال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾» قـال الحسن البـصري: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت، ذلك هو حال الفجار المكذبين، وهذه هي علة الفجور والتكذيب.

فقد حجبوا عن قلوبهم نور الإيمان ونور القرآن فعاشوا في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها؛ لأنه من لم يجعل اللـــه له نورًا فما له من نور، ذلك أن القلوب تحيا بأعمال الإيمان والقرآن.

إن القلب كائن حي يعقـــل ويفهم ويدرك، والقلب في القـــــرآن الكريم يشير إلى العقل، فها هي مصـــــارع الـغـابـريـن حـيـالـهـم شـاخـــة مـوحـيـة، تتحدث بالعبر، وتنطق بالعظات، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ (فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل) ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (أي تسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة) ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦] وهنا يمعن في تحديد مواضع القلوب: (التي في الصدور) زيادة في التوكيد، وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد!. ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى، وجاشت بالعبرة، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة في مصارع الغابرين، وهي حولهم كثير؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦].

ومن عجائب القرآن في هذا الشأن ما جاء في سورة الحشر -من ربط بين القلب والعقل -وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحشر: ١٤] وكذلك الحال -ربط بين القلب والفقه -في قوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة: ٨٧].

وهنا نلاحظ الربط بين القلب والفقه، والفقه -كما هو معروف -لغة هو الفهم وحسن الإدراك والتعقل، وهو العلم أيضا والفطنة، فالقلب والعقل في اعتقادي شيء واحد، يؤكد هذا أيضاً ما جاء في السورة نفسها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٧] إذًا هذه دلالة صحيحة وصريحة بأن الفقه محله القلب.

والمعنى نفسه تكرر مع المنافقين أيضا في سورة المنافقون؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة المنافقون: ٣].

وسُمى القلبُ -الذي في الصدر- قلباً لأنه كثير التقلبات من خير إلى شر، ومن حسد إلى حب، ومن إيمان إلى كفر، ومن عفاف إلى شهوة، ومهمة القلب أن يعقل الأشياء ويقلبها حتى يرى الحق حقاً والباطل باطلاً؛ ومن ثم كان دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ والقلب إذا أصابته قسوة وامتلأ من ظلمات الكفر والشك والنفاق يكون أشدَّ صلابة من الحجر، بل إن الحجر قد يلين فيخرج منه الماء، ولكن قلوب هؤلاء لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى، قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة، ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وحق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]، والقلب إذا استنار بنور الله ونور الإيمان تولى الله حفظه، وملأه محبة وخشية، ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ وذلك سرُ الله لا يطلع عليه غيره.

فالقلب الذاكر لله تعالى فيه طمأنينة وسكون وسكينة وسعادة، والقلب الغافل عن ذكر الله فيه اضطراب وتعاسة وشقاء وعناء وريب وشك. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء، إنه يدب في القلوب فعلاً دبيب الشفاء في الجسم المعلول!. يدب فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب، ويدب فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقي الفطرية، فتهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب، ويدب فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية، ويدب فيها بإيحاءاته

المطمئنة التي تسكب الطمأنينة في القلوب إلى الله، وإلى العدل في الجزاء، وإلى غلبة الخير، وإلى حسن المصير.

وإنها لعبارة تثير حشداً وراء حشد من المعاني والدلائل، تعجز عنها لغة البشر ويوحي بها هذا التعبير العجيب؛ أن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى، أو يقهرهم على الهدى، أو يقذف بالهدى في قلوبهم فيهتدوا بلا قهر، ولكنه – سبحانه –شاء غير هذا!. شاء أن يبتلي بني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته، وجرت سنته بما شاء؛ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

مفهوم القلب في اللغة العربية:

القلب: عُضْوٌ عَضَلِيٌّ يَنْبِضُ فِي الْجَانِبِ الأَيْسَرِ مِنَ الصَّدْرِ ، يُنَظِّمُ الْحَرَكَةَ الدَّمَوِيَّةَ إِلَى أَطْرَافِ الْجِسْم، جاء في المعجم الوسيط القَلْب): عضو عَضَلِيّ أجوف يستقبل الدَّمَ من الأوردة ويدفعه في الشرايين، قاعدته إلى أعلى معلَّقة بنِياط في الجهة اليسرى من التجويف الصدريّ، وبه تجويفان: يَساريّ به الدم الأحمر، ويمينيّ به الدم الأزرق المحتاج إلى التنقية؛ وبكل تجويف تجويفان فرعيان يفصل بينهما صمام، ويسمى التجويف العُلْوي: الأُذَين، والتجويف السُّفليُّ: البُطَين.

وقد يعبَّر بالقلب عن العقل باعتباره مركزًا للإدراك والأحاسيس وموضعًا للهدى والتقوى والطَّهارة والسَّكينة وكذلك للإثم واللَّهو والزَّيغ والغيظ والحسرة... إلخ ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ وهو مثل ضُرب لمن ظاهر زوجته ، فكما لا يوجد للرجل قلبان في جوفه كذلك لا تكون امرأة المظاهر أُمَّه لأنّه لا توجد أمّان للشّخص الواحد؛ قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ ﴾ [سورة الأحزاب: ٤].

وجاء في القاموس المحيط: القلب

هو الفؤاد أو أخص منه والعقل ومحض كل شيء.

وجاء في لسان العرب: القلب تحويل الشيء عن وجهه قلَبَه يقلبُه قلبا، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[سورة الشعراء: ١٩٣ -١٩٤] أي نزل به جبريل عليه السلام ، على قلب النبي فوعاه وثبت في قلبه فلا ينساه بعون اللـه تعالى.

والقلب تتراوح معانيه بين الجانب العاطفي في الإنسان الذي يمثل المشاعر الوجدانية من حب وكره وشجاعة وخوف وألم وفرح.. . الخ وبين الجانب العقلاني الذي يمثل الهداية والضلال والإسرار والإعلان وإطاعة أوامر اللـه أو عصيانه وتلقي الوحي والإلهام والتذكر والتدبر.

لفظ القلب في القرآن المجيد:

ورد لفظ القلب -في القرآن المجيد- مفرداً وجمعاً مضافاً وغير مضاف -في مائة واثنين وثلاثين موضعاً. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي ص ٦٩٧ ط دار الحديث القاهرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة القلب لم تأت معرفة (بأل) إلا في موضع واحد في القرآن كله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وذلك ضمن سياق آيات سورة آل عمران وهي تتحدث عن غزوة أحد في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

والسياق -هنا -يتجه إلى رسول الله ﷺ لاستثارة معاني الرحمة في قلبه؛ فهي رحمة الله التي وسعته ووسعتهم، ونالته ونالتهم؛ فجعلته رحيمًا بهم، لينًا معهم، رفيقاً بهم؛ ولو كان فظا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء؛ ويَحمل همومهم ولا يُحمّلهم همه؛ ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية

والعطف والسماحة والود والرضاء؛ وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس؛ ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه؛ نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة.

وكان رسول الله ﷺ وفي نفسه شيء من القوم؛ فقد تحمسوا للخروج، ثم اضطربت صفوفهم، فرجع ثلث الجيش قبل معركة أحد؛ وخالفوا -بعد ذلك -عن أمره، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة، ووهنوا أمام إشاعة مقتله، وانقلبوا على أعقابهم مهزومين، وتركوه يثخن بالجراح وهو صامد يدعوهم في أخراهم، وهم لا يلوون على أحد؛ وهنا يأتي الخطاب القرآني متوجهاً إليه ﷺ يطيب قلبه، وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به، والقرآن هنا يذكره ويذكرهم رحمة الله الممثلة في خلقه الكريم الرحيم الذي تتجمع حوله القلوب؛ ذلك ليستجيش كوامن الرحمة في قلبه ﷺ فتغلب على ما آثاره تصرفهم فيه؛ وليحسوا هم حقيقة النعمة الإلهية بهذا النبي الرحيم، ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [سورة الحديد: ٢٧] إنها الثمرة الطبيعية لسماحة النبي محمد؛ الرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في أخلاق المؤمنين حقيقة بمنهج الإسلام في التعامل مع الآخرين بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق والإيمان، ثم يدعوه أن يعفو عنهم، ويستغفر الله لهم، وأن يشاورهم في الأمر كما كان يشاورهم؛ غير متأثر بنتائج هذا الموقف، وإذا مالت بعض القلوب فإن الله -سبحانه -يخاطبها، فهو يعلم أحوالها، ويعرف مداخلها، ويطلع على خوافيها، هو يعلم أن نقاء العقيدة ، وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقرارا تنبثق منه آثاره ونتائجه في واقع الحياة، من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله؛ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ ثم يحذرها من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة، ومن القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع للحق، فليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج.

إن هذا القلب البشري سريع التقلب، سريع النسيان، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا، وانطمست إشراقاته وأظلم وأعتم ! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف؛ ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة، وقد يصيب القلب ما يصيب الأرض من جفاء وتشقق، فالله يحيي الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبت والزهر، وتمنح الأكل والثمار؛ وكذلك القلوب حين يشاء الله فلا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله؛ فإن الله تعالى يتناول القلوب، فيهزها هزا، ويأخذها أخذا، وهو يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلا الله، ولا ترى إلا الله، ولا تحس بغير الله، ولا تعلم لها مهربا من قدرته ولا مخبأ من علمه، ولا مرجعا إلا إليه، ولا متوجها إلا لوجهه الكريم.

وجاءت كلمة قلبك مخاطبا بها رسول الله في ثلاثة مواضع؛ أولها في سورة (البقرة) والثاني في سورة (الشعراء) وآخرها في سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فكل من يزعم أن محمداً لم يوح إليه، ولم يأته شيء من الله ينتبه لهذا النص الذي يمس القلوب؛ فما كان الله سبحانه وتعالى ليدع أحدًا يدّعي أن الله أوحى إليه، وهو لم يوح إليه شيئاً، وهو قادر على أن يختم على قلبه، فلا ينطق بقرآن كهذا، وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويمحوه، وأن يظهر الحق من ورائه ويثبته؛ فإن يشأ الله يختم على قلبك،

ويمحو الله الباطل، ويحق الحق بكلماته.

فهذه سنة الله تعالى في إقرار الحق وإزهاق الباطل، ومن ثم فإن هذا الوحي حق، وقول محمد صدق؛ وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال.

ففي سورة البقرة جاء قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لقد بلغ باليهود من الحنق والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغًا يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل، لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمدﷺ ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة ، فيزعموا أن جبريل عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل!. ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر والخصب!.

إنها الحماقة المضحكة، ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة، وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟. وجبريل لم يكن بشرا يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير؟. إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصى الله ما أمره!.

فما كان له من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتية، في أن ينزله على قلبك، إنما هو منفذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك، والقلب هو موضع التلقي، وهو الذي يفقه بعد التلقي، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ، والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال.

وفي سورة (الشعراء) جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٢ -١٩٥] الروح الأمين جبريلؑ نزل بهذا القرآن من عند الله

على قلب رسول الله ﷺ وهو أمين على ما نزل به، حفيظ عليه، نزل به على قلب رسول الله؛ فتلقاه تلقيا مباشراً، ووعاه وعيًا مباشرًا. نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين؛ هو لسان قومه الذي يدعوهم به، ويتلو عليهم القرآن.

وجاءت كلمة (قلب) نكرة في موضعين في سورة (ق)؛ الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ إنه لمشهد وديعٌ أليف، رضيٌ جميل، إنه مشهد الجنة وهي تُقرّب من المتقين، حتى تتراءى لهم من قريب، مع الترحيب والتكريم؛ التكريم في كل كلمة وفي كل حركة؛ فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء: (غير بعيد)!. ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب).. فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون، فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم؛ فالمزيد من ربهم غير محدود.

وفي موضع آخر في نفس السورة يستثير القلوب الغافلة فيذكرها بمصارع الغابرين في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وفي مصارع الغابرين ذكرى؛ ذكرى لمن كان له قلب؛ فمن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذي مات قلبه أو لم يرزق قلبا على الإطلاق! لا، بل إنه ليكفي للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعي، فتفعل القصة فعلها في النفوس؛ وإنه للحق؛ فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة.

وجاءت كلمة (قلب) في خمسة

مواضع؛ من هذه المواضع موضعان جاءت كلمة قلب منعوتة بالسلامة من كل شائبة تشوبه أو شيء يسوؤه وذلك في سياق الحديث عن نبي الله إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وذلك ضمن دعائه ربه ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن.

إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى؛ تحركه مشاعر أصفى، ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه. والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد.

ويلاحظ من قولة إبراهيم عليه السلام إدراكه لحقيقة القيم الإيمانية، فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص؛ إخلاص القلب لله تعالى، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض، وخلوه من التعلق بغير الله عز وجل؛ فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ويُبرز القرآن الكريم -في سورة الصافات- من صفة إبراهيم سلامةَ القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وهي صورة الاستسلام الخالص لله تعالى؛ تتمثل في مجيئه لربه، وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه.

وهو عليه السلام الذي تشوّفَ إلى معرفة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل؛ حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحيانا نفوس بعض البشر من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية!.

أراد عليه السلام أن يرى يد القدرة وهي تعمل؛ ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها؛ وهذا أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان.

ولأن القلب هو محل التدبّر وصاحب

القرار وعليه يقع الإثم في الكتمان وإسرار الشيء وإخفاؤه، وهذا يناط بإرادة الإنسان ونيته وضميره، ولذلك كان كتمان الشهادة وعدم أدائها إثما وذنبا يُحاسب عليه الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فعند التقاضي لا عند التعاقد -يتضح نقاء القلب وصفاؤه؛ لأنها أمانة في عنق الشاهد وقلبه، ومن ثم جاءت العبارة مقرونة بالقلب؛ ولا تكتموا الشهادة؛ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه). ويلاحظ أن التعبير القرآني يتكئ على القلب؛ فينسب إليه الإثم؛ تنسيقا بين الإضمار للإثم، والكتمان للشهادة؛ فكلاهما عمل يتم في أعماق القلب وهو يجزي عليه بمقتضى علمه سبحانه الذي يكشف الإثم الكامن في القلوب ويجازي عليه؛ فهو مالك السماوات والأرض وما فيهما، وهو العليم بمكنونات الضمائر خفيت أم ظهرت، وهو المجازي عليها، المتصرف في مصائر العباد بما يشاء من الرحمة والعذاب ، القدير على كل شيء تتعلق به مشيئته بلا تعقيب!.

وفي نفس السياق يأتي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ فهناك من الناس من يتحدث، فيصور لك نفسه خلاصة من الخير، ومن الإخلاص، ومن التجرد، ومن الحب، ومن الترفع، ومن الرغبة في إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس؛ هذا الذي يعجبك حديثه، وتعجبك ذلاقة لسانه، وتعجبك نبرة صوته، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح (ويشهد الله على ما في قلبه) الذي ازدحم بالدد والعناد والخصومة، حتى لا يوجد فيه موضع للحب أو الخير ولا مكان فيها للتجمل والإيثار، ومع ذلك يعمل على إظهار التقوى والخشية، وهو ألد الخصام؛ هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه، ويتنافر مظهره ومخبره، هذا الذي يتقن الكذب والتمويه والدهان، حتى استمرأه فأصبح أهلا لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٨].

وفي القلب يطمئن الإيمـــان مهما صدر من أفعال قد يُكره المرءُ على فعلها قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبداً إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له، وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة، فالله رحيم، رخص للمسلم –حين يتجاوز العذاب طاقته –أن يقي نفسه بالتظاهر، مع بقاء قلبه ثابتًا على الإسلام مطمئناً بالإيمان، ولكنه لم يرخص له في الكفر الحقيقي، وفي الارتـداد الحقيقي، بحيث يموت وهو كافر، والنص هاهنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثارا للحياة الدنيا على الآخرة؛ فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية؛ ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون.

ذلك أن العقيدة الإسلامية لا يجوز أن تكون موضع مساومة بين الحق والباطل، أو حساب للربح والخسارة؛ فمتى آمن القلب بالله عز وجل فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض؛ لأن العقيدة الإسلامية هي أعلى من هذا وأعز؛ وقد روى أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر؛ روى ابن جرير –بإسناده –عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي«كيف تجد قلبك؟.» قال: مطمئنا بـالإيـمان. فقال النبي ﷺ: «إن عـادوا فعد؛ فطالما أن القلب لم يتعمد الخطأ فإن

الله تعالى غفور رحيم: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وكما في قول الله سبحانه: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٥] وهذه السماحة ترجع إلى أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالغفران والرحمة وخص بهما عباده، فلا يعنت الناس بما لا يستطيعون، ولا يكلفهم ما يطيقون.

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظة باللسان؛ كذلك صنعت سمية أم ياسر، وهي تطعن بالحربة في موضع العفة حتى تموت وكذلك صنع أبوه ياسر.

وقد كان بلال رضي الله عنه يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم وهو يقول: أحدٌ.. أحدٌ. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها.

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدا رسول الله. فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟. فيقول: لا أسمع!. فلم يزل يقطعه إربا إربا، وهو ثابت على ذلك.

والقلب الذي عرف نور الإيمان والتزم به واهتدى بهديه وسار على منهجه وجد من الله تعالى عوناً له وسندًا، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

إنه الأثر الطبيعي للإيمان بالله في هداية القلب؛ فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله. وهي حقيقة لا يكون إيمان بغيرها. فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها. وفي الحديث المتفق عليه: «عجبا للمؤمن!. لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرا له. إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

إن أعمال القلوب تتقلب يبين الإيمان والكفر، بين الطاعة والمعصية؛ فإن كانت في إقبال على ربها هداها الله

وثبتها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ فيكون ذلك جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم، وكما في قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ فأما القلوب المريضة والقلوب الكافرة فتظل الريبة فيها حتى تنتهي بها إلى شر مصير؛ قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى، وجاشت بالعبرة، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة في مصارع الغابرين، وهي حولهم كثير ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ويُمعِنُ القرآنُ المجيد في تحديد مواضع القلوب: (التي في الصدور) زيادة في التوكيد، وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد!.

وفرق بين العمى والعمه؛ فالعمى يصيب البصر، والعمه يصيب البصيرة، قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٧٢].

فالقلوب العامرة بالإيمان توجل لذكر الله وتزداد إيمانا مع ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

والقلوب الخربة تشمئز عند ذكر الله تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

فرق شاسع بين قلوب عامرة وقلوب خربة ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ فإن كانت القلوب في إدبار عن ربها أقصاها الله وطبع عليها.

ومن عجائب الحديث عن القلب

في القرآن المجيد أن الله سبحانه يبين أن القلب له طبيعة واحدة في التعامل مع الكون؛ فهو شخص واحد له قلب واحد، تعمره عقيدة واحدة؛ ومن ثم له تصور واحد للحياة، وميزان واحد للقيم.؛ قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ وبهذا القلب الواحد يعيش فردا، ويعيش في الأسرة، ويعيش في الجماعة، ويعيش في دولة، ويعيش في العالم، ويعيش سرا وعلانية، ويعيش عاملا وصاحب عمل، ويعيش حاكما ومحكوما، ويعيش في السراء والضراء؛ فلا تتبدل موازينه، ولا تتبدل قيمه، ولا تتبدل تصوراته؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ومن ثم كانت هذه العبارة توطئة لما بعدها أن ثمة متناقضات لا تجتمع في آنٍ واحد؛ فكما أن الرجل ليس له قلبان كذلك لا يمكن أن تكون زوجتك هي أمك، وكذلك لا يمكن أن يكون من ليس ابنك من صلبك ابناً لك، وكذلك لا يمكن أن يجتمع الكفر مع الإيمان أو الشرك والتوحيد في قلب رجل واحد؛ فالقلب حيز محدود لا يتسع لشيئين معاً إن دخله الإيمان فلا مكان للكفر؛ فيصدر عن طهارة القلب ضخ الدم الطاهر الذكي النقي إلى كل أعضاء الجسم؛ فتتحرك الأقدام إلى طاعة الله، وينطق اللسان بما يرضي الله، وتكتب اليد كلمة الحق، وتسمع الأذن كلمة الصدق... الخ

لفظ الفؤاد في القرآن المجيد:

الفؤاد موضع المعرفة وموضع الخواطر وموضع الرؤية، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولاً، ثم القلب؛ والفؤاد في وسط القلب كما أن القلب في وسط الصدر، مثل اللؤلؤة في الصدف؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٣٦].

وكأن علاقة الفؤاد بالقلب مثل علاقة العين بنور العين؛ فإذا كان القلب مهمته العلم فإن الفؤاد مهمته الرؤية؛

فالفؤاد يرى حقيقة الشيء، والقلب يعلم ظاهره، فإذا اجتمع العلم والرؤية صار الغيب عند صاحبه عياناً، ويستيقن العبد بالعلم والمشاهدة وحقيقة رؤية الإيمان: ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٤].

مفهوم الفؤاد فى اللغة العربية:

جاء في قاموس المعاني والمعجم الوسيط: الفؤاد تُجمع أَفْئِدَةٌ وفُؤَادُ الإِنْسَانِ قَلْبُهُ، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [سورة الفرقان: ٣٢].

قال أبو تمام:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى
مَا الْحُبُّ إِلاَّ لِلْحَبِيبِ الأَوَّلِ

وفي التنزيل العزيز: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [سورة النجم: ١١].

ويقال: هو فارغ الفؤاد: لا هَمَّ عنده ولا حَزَن، أَو سيِّئ الحال، وبه قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ [سورة القصص: ١٠].

كما ورد لفظ (الفؤاد) في القرآن الكريم -مفرداً وجمعاً نكرة ومعرفة مضافاً وغير مضاف -في ستة عشر موضاً... راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي ص ٦٤٨ ط دار الحديث القاهرة.

والقلب والفؤاد يُعبّر عنهما بلفظة البصر لأنهما موضعان للبصر، قال الله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [سورة النور: ٤٤]، وقال: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [سورة الحشر: ٢] فأهل الأبصار لهم الاعتبار، بأن يروا في الأشياء لطائف صنع الله تعالى، وإنما هم أهل القلوب.

ولا شك أن المجاهدة الصحيحة للنفس ورؤية الآخرة بعين القلب نابعة من صفاء القلب وتوجهه الصيح نحو خالقه سبحانه، كما قال حارثة «أصبحت مؤمناً حقاً» [٢٣]. قال رسول الله: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» الحديث.

فهذا كشف الله له -بسبب عزوف نفسه عن الدنيا -كشف له الآخرة وعاينها بنور قلبه، وإنه لم ينطق عن

علم تعلمه أو كتاب قرأه إنما نطق عن مجاهدته التي أورثته مشاهـــدة العرش والجنة وأهلها والنار وأهلها. فبان لك أن الرؤية والمشاهدة مـــن جهة العبد يزداد سلطانها وأنوارها مـــن الله تعالى؛ فمعدن الرؤية هو الفؤاد، قال الله عز وجل: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [سورة النجم: ١١].

والفؤاد مشتقّ من الفائدة لأنه يرى مـن الله عز وجل فوائد حبه وثمرات عطائه التي تتمثل في الرضا بقضاء الله وقـدره، والتسليم بحكمه، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٦٥]، فيستفيد الفؤاد بالرؤية ويتلذذ القلب بالعلم، وإنـه مـا لم يـر الـفـؤاد لم ينتفع القلب بالعلم؛ وهـذه طبيعة المؤمن الصادق يمضي راضيا بحكم الله مسلما بقضائه، ليس في صدره حرج، ولا في نفسه لجج.

واسـم الـفـؤاد أدقّ معنى من اسم القلب، ومعناهما قريب كقرب معنى الاسمين الرحمن الرحيم. فحافظ القلب هو الرحمن، لأن القلب معدن الإيمان، والمؤمن توكل بصحة إيمانه على الرحمن، قـال الله تـعـالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾. وحـافـظ الـفـؤاد هو الـرحـيـم، قـال الله تـعـالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[سورة الأعراف: ١٥٦]. وقال كذلك: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [سورة الفرقان: ٣٢].

ووصـف الله تـبـارك وتـعـالى ربطه قلب العبد، فقال في قصة أصحاب الـكـهـف: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ ﴾ [سورة الكهف: ١٤]، فقال في قصة أم موسى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [سورة القصص: ١٠]. وقال أهل التفسير: ربط القلب بنور التوحيد وذلك أن القلب يعلم والعالم يحتاج إلى ربط التأييد حتى يطمئن بذكر الله عز وجـل. وأمـا الفؤاد فإنه يـرى ويعاين فيقع له الفراغة ولا يحتاج إلى الربط بل يحتاج إلى معونة المدد بالهداية. قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا

إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ [سورة القصص: ١٠]، فوصف الفؤاد بالفراغة وفضّله على القلب إذ كان القلب يحتاج إلى الربط والفؤاد يرى ويعاين والقلب يعلم، وليس الخبر كالمعاينة.

والفؤاد في أهميته ودوره لا يقل عن أهمية القلب ودوره، بل إنه في كثير من آيات القرآن يؤكد المعاني التي يتضمنها لفظ القلب، من حيث التعبير عن العقل وارتباطه بالمسؤولية واشتراكه مع الحواس في العمل؛ فقد خلق الله سبحانه الإنسان وجعل له السمع والبصر والفؤاد ليستعين بهم على طلب المعرفة، فيشكر نعمة الله تعالى ويؤمن به، ولكن الإنسان قد يجحد هذه النعمة فلا يستفيد من وجود هذه القدرات والملكات فيعطلها ويجحد نعم الله عليه؛ قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٧٨] وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٦] وعندما يصغى ضعيف الإيمان إلى وسوسة الشيطان وهو يغريه بزخرف القول وفساد العقيدة، يسند الإصغاء إلى الأفئدة قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٣].

والقرآن المجيد يقص علينا من نبأ إبراهيم عليه السلام، أنه ترك ابنه إسماعيل مع أمه هاجر في الصحراء، ثم دعا ربه قائلاً: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧].

وكذلك سرد لنا التاريخ من أنباء الرسل السابقين والتي قصها القرآن على نبيه محمد عليه السلام، ليثبيت فؤاده من ناحية ولتكون موعظة وذكرى للمؤمنين من ناحية أخرى، فيقول سبحانه في [سورة

هـود: ١٢٠]: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ .

وبما أن الفؤاد مسؤول مسؤولية كاملة، فإن القرآن يحذر الإنسان من تتبع أسرار الآخرين لأن سمعه وبصره وفؤاده مسؤول عن ذلك وسيشهدون عليه يوم القيامة؛ جاء في سورة الإسراء قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

خلاصة القول:

حاولنا في هذه السطور أن نقف أمام النص القرآني متدبرين له، متحررين من الآراء التي عرفها جمهور القراء، نحاول أن نستشف منه المعاني الحقيقية للفظ «القلب» ولفظ «الفؤاد»؛ وقد عرفنا أن القلب هو الذي يقوم بالتأمل، والدرس والمعرفة والاتعاظ وأنه هو الذي يعقل، وهو الذي يقلب الأمور على أوجه عديدة حتى يصل إلى مراده ويطمئن إلى حقيقة الشيء الذي يريده، ومن ثم نجد أن الفعل (يعقلون) أسند إلى (القلب) في هذه الآية الكريمة فقال «قلوب يعقلون بها» مع إضافة شيء يدل على الإصغاء إلى نداء باطني رغم التعبير عن ذلك بحاسة ظاهرة وهى قوله «أو آذان يسمعون بها». إذن الحقيقة شيء أعمق من هذا وذاك؛ فلا القلب قصد به العقل ذاته، ولا الأذن قصد بها الأذن ذاتها، بدليل ما جاء في آخر الآية من قرينة تفسر وتشرح ما سبق وهي الإشارة إلى شيء هام، وإلى معنى دقيق: «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور». فقد أسندت «العماية» إلى هذا العضو الذي يوجد في الصدر، إلى القلب.

إذن هناك بصر وبصيرة، هناك رؤية عينية ورؤية قلبية، فقد يمر الإنسان ببصره على كثير من الآيات والدلائل على القدرة الإلهية ولا يحس بها ولا يدرك حقيقتها لأن «بصيرته» مظلمة،

لأن قلبه أعمى، وقد تنكشف الحقائق فيراها أمامه جلية واضحة، يراها بقلبه، يراها ببصيرته التي في أعماق نفسه، فيدرك أبعادها ويفهم دقائقها فيعرف ما ورائها من حكمة.

إن لفظ القلب والفؤاد في القرآن قد اتسعت معانيهما وتعددت جوانبهما، حتى لم يعد بإمكاننا حصرهما في المعاني العاطفية وحدها أو في المعاني العقلية، بل إنهما تجاوزا هذا المعنى إلى معان أخرى.

ومن المعروف أنه لا نجاة للإنسان في الدنيا والآخرة إلا إذا سَلِمَ قلبُه وحسن فؤاده؛ لأن القلب عليه مدار الأمور؛ فإذا صلح قلبه صلح جسده كله، وإذا فسد، فسد جسده كله؛ ولأن الفوائد تنبثق منه مشاعر الإنسان وأحاسيسه؛ فكان لابد له من ضبط وفق الرؤية الإسلامية؛ وقد جاءت آية واحدة في القرآن المجيد جمعت بين الفؤاد والقلب وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة القصص: ١٠].

وإذا كان القلب في القرآن الكريم يشير إلى العقل، فإن الفؤاد يشير إلى مركز المشاعر والأحاسيس فينا؛ فأُمّ موسى أنفطر فؤادها على وليدها الصغير، وكان الربط وظيفة القلب بمعنى العقل الذي ضبط المشاعر والأفعال لأنها كانت ستذهب إليه، ونحن نعلم دقة القرآن الكريم في استخدام الألفاظ و الدلالات اللغوية.

فقلب الإنسان هو محل نظر الخالق تبارك وتعالى وقبول العمل ورده، والإثابة عليه بالنظر إلى نيّة العبد؛ فإما أن يكون نقياً سليمًا، وإما يكون منحرفاً سقيمًا؛ سليمًا من الشرك أو سقيمًا بالشرك، سليمًا من الكفر أو سقيمًا بالكفر، سليمًا من النفاق والرياء أو سقيمًا بالرياء والنفاق؛ يقول المولى عز وجل: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء: ٨٩].